العربي الجديد

هوامش

كسرت الشابة الجامعية أسماء القماطي صورة مربّي الأبقار النمطية في تونس، التي تقتصر على الرجال، فباتت لديها اليوم تسع بقرات تنتج لها الحليب يومياً في مزرعتها الصغيرة التي تنوي توسعتها

عمل متعب لكنّها تحبه ويحقق طموحاتها (العربي الجديد)

أسماء القماطي

مجازة بالإنكليزية اختارت تربية الأبقار

تونس ـ **مريم الناصري**

على مدار السنة، من دون أن تنعم براحة أسبوعية أحياناً، تبدأ عملها اليومي منذ الخامسة صباحاً، بتنظيف حظيرة أبقارها وتغيير العلف، ثم تنظيف الضروع قبل حلبها، وصولاً إلى تسليم الحليب قبل السابعة صباحاً للبائع، الذي يسلمه بدوره إلى إحدى شركات تجميع الحليب. كذلك تتولى إرضاع العجول الصغيرة، وإيقاد النار لتدفئتها في الشتاء.

تغلب صورة الفتاة البسيطة الأمية أو ذات التعليم المحدود على المرأة الريفية في تونس، بل ربما ترسخ في الذهن صورة الفتاة ذات الهيئة البسيطة والملابس الرثة، لكنّ الشابة أسماء القماطي (27 عاماً)، كسرت تلك الصورة النمطية عن الفتاة الريفية. فهي أولاً مُجازة باللغة الإنكليزية، ولم تنتظر أن تنعم بوظيفة أو بعمل في أحد المعاهد لتدريس اللغة، كما أنّها تهتم بمظهرها على الرغم من عملها في الحظيرة، وهو ما لفت انتباه جميع متابعيها على مواقع التواصل الاجتماعي. تقول أسماء إنّها «مغرمة منذ طفولتي بالأعمال الزراعية بجميع أصنافها وبتربية الأبقار خصوصاً. نشأت في ضيعة والدي في محافظة الكاف، شمال غربي تونس، وبدأت في تربية بقرتين فقط بعد تخرجي من الجامعة مباشرة، على الرغم من رفض عائلتي لترك اختصاصي وخوض تجربة العمل في مجال شاق يُعتقد أنّه حكر على الرجال».

تشير أسماء إلى أنّها عاشت في بيئة محافظة ولم تكن ترافق والدها باستمرار خلال عمله في الضيعة. لكنّها اليوم باتت تقوم بكلّ الأعمال للعناية بالأبقار بمفردها من دون مساعدة. وأثبتت لعائلتها التي رفضت عملها، أو لأولئك الذين شككوا في قدرة خريجة تعليم جامعي على تربية الأبقار، أنّها استطاعت التأقلم مع عمل أحبته من خلال مرافقة والدها أحياناً خلال قيامه ببعض الأعمال الزراعية، كما انتقلت بالمعرفة إلى مستوى أعلى، إذ تلقت دورة تدريبية في بعض الأعمال الزراعية، خصوصاً في تربية الأبقار.

تضيف، في حديث لـ«العربي الجديد»: «بتّ اليوم أعتني بتسع بقرات وثمانية عجول. وأنا من أصحاب المشاريع الصغرى أو من صغار مربي الأبقار، فأحقق بعض الأرباح المقبولة التي تتغير من موسم إلى آخر بحسب إنتاج الحليب. حبي لعملي يدفعني إلى توسيع المشروع أكثر خلال السنوات المقبلة». وتتابع: «بالرغم من انتقاد البعض لي ولعملي، فقد وجهت أكثر من رسالة خاصة على مواقع التواصل الاجتماعي حول العمل الزراعي أو تربية الأبقار، وضرورة التشبث بأيّ عمل يمكن النجاح فيه، خصوصاً أنّ تونس تتمتع بمناخ يساعد على العمل الزراعي في عدّة جهات، لا سيما الشمال الغربي. وأردت توجيه رسالة بأنّه ليس بالضرورة أن ينتظر كلّ من تلقى تعليماً في الجامعات التعيين في الوظيفة العمومية أو أيّ وظيفة حتى في القطاع الخاص ليضمن دخلاً شهرياً ثابتاً، فكلّ شاب وشابة قادران على تأسيس مشروع خاص بهما، خصوصاً في المجال الزراعي، مع ضرورة عدم الخجل من أيّ عمل مهما كان».

تشير أسماء إلى أنّها تعمل يومياً وتكاد لا تتمتع بأيّ عطلة أسبوعية لعدّة أشهر. فهي تعتني بالأبقار بمفردها، وتتيح لها أن ترعى في المراعي القريبة من الحظيرة في تلك القرية الصغيرة. رفيقها كتاب وبعض الزاد للأكل، فيما يدوم عملها في الرعي قرابة ثلاث ساعات صباحاً، على أن ترعى الأبقار أيضاً ثلاث ساعات أخرى بعد الظهر، لتعود قبل المغرب إلى الحظيرة، حيث تقدم بعض العلف والماء وتقوم بتنظيف المكان، لتنهي عملها عند الساعة السابعة مساء.

وعلى الرغم من أنّ تربية الأبقار عمل شاق، وظلّت حكراً على الرجال في منطقتها، فإنّ حبها للعمل الزراعي وتربية الأبقار خصوصاً جعلها تتعلم يوماً بعد يوم كلّ ما يتعلّق بهذا المجال من دون أيّ مساعدة، بل إنّها تقوم أحياناً بحرث الأرض لزراعة الأعلاف وبعض الخضر، وتجني المحاصيل رفقة نسوة القرية. لا تخجل بأيّ عمل ولا تشعر بصعوبة ما قد تقوم به لمساعدة والدها.

تقول أسماء إنّها لم تنقطع عن المطالعة، فكلما سنحت لها الفرصة تطالع باستمرار أيّ كتب تحصل عليها، حتى خلال رعيها الأبقار. كذلك، تهتم بمظهرها كثيراً، وهو ما أثار انتقاد بعض متابعيها، فعلق بعضهم: «كيف لفتاة تربي الأبقار أن تهتم بمظهرها وتلبس على الموضة؟». تضيف: «كسرت الصورة النمطية عن الفتاة الريفية، وأنا أصرّ على التقاط الصور خلال عملي لأوصل رسالة لآلاف الشباب الذين ينفرون من العمل الزراعي ولا يحبّذون المشقة، أنّ كلّ شخص قادر على العمل بالترافق مع إعطاء وقت لنفسه ولحياته ولشكله». وتشير إلى أنّ الأعمال الزراعية توفر مداخيل أفضل من وظيفة منتظرة بدخلها الشهري البسيط. وتلفت إلى أنّ عائلتها التي رفضت في البداية تخليها عن شهادتها واختصاصها «باتت اليوم فخورة بما أفعل في الضيعة، وفخورة بنجاح مشروعي على الرغم من أنّي لم أتلقَّ أيّ دعم من أيّ جهة حكومية أو أيّ منظمة تدعم المرأة الريفية».

باختصار

يومياً، تنظف حظيرة أبقارها وتغير علفها، ثم تنظف الضروع قبل حلبها، وصولاً إلى تسليم الحليب قبل السابعة صباحاً

■ ■ ■

أصرّ على التقاط الصور خلال عملي لأوصل رسالة لآلاف الشباب الذين ينفرون من العمل الزراعي ولا يحبّذون المشقة، أنّ كلّ شخص قادر على العمل بالترافق مع إعطاء وقت لنفسه ولحياته ولشكله

■ ■ ■

فخورة بنجاح مشروعي على الرغم من أنّي لم أتلقَّ أيّ دعم من أيّ جهة حكومية أو أيّ منظمة تدعم المرأة الريفية

وأخيراً

تلفّت القلب

رشا عمران

لم أستطع الالتفات إلى الخلف، كي ألقي عليهم تحية الوداع الأخيرة، وهم يستقلون السيارة التي ستحملهم إلى مطار القاهرة للمرة الأخيرة. كنت أعرف أن تلك الالتفاتة سوف تجعلني أعود لمعانقتهم فردا فردا من جديد، ما يعني أن البكاء الذي غالبتُه أياما سوف يهزمني أمامهم. وسوف تكون اللحظة تلك قاسيةً جدا علينا جميعا، عليّ أنا بالتحديد، إذ منذ مدة، وأنا أخفي في داخلي كل الحزن والقهر والغضب. لا أظهر مشاعري وعواطفي كما يجب، كأنني أريد أن أثبت لنفسي وللآخرين أنني امرأة قوية، باتت متمرسةً بالصعب من الحياة، وتعرف كيف تضع العتبات بينها وبين الآخرين، كي لا تُصاب بكسرة القلب الذي كاد التعلّق بالبشر والأصدقاء أن يُتلفه ذات يوم؛ بيد أن ذلك لم يكن أصيلا، كان مجرّد قناعٍ وضعتُه يوما، وصدّرته للآخرين، وصدّقته أنا نفسي. ولكنه على ما يبدو كان قناعا مغشوشا، يكشف ما خلفه: امرأة هشّة ووحيدة، تتعلق بأحبائها وتقلق عليهم وتخاف من فقدانهم. الفقد.. يا إلهي، كم فقدت في حياتي من الأصدقاء، إذ منذ بداية 2011، وحياتي سلسلة من فقدان الأصدقاء، فرّقت بيننا المسارات والأمزجة والتحالفات والمسافات والموت. ومع كل فقدٍ لصديق كانت الحياة تعوّضني بآخر قريب، ليغادر حياتي بعد مدة، وهو يزيد في مساحة الوحشة التي تحتل روحي بهدوء.

لم يكن هيثم وديما، صديقاي اللذان غادرا مصر أول من أمس لآخر مرة، مع أطفالهما، نحو بلاد جديدة، تمنحهما أمانا مفقودا في بلاد العرب، وتمنح أطفالهما مستقبلا واضحا، ربما لا وجود له هذه المنطقة البائسة من العالم، لم يكونا مجرّد صديقيْن عبرا في حياتي بشكل عادي، (نادرا ما يعبر الأصدقاء في حياتي بشكل عادي)، كانا هنا بديلا عن الابنة والأخت والأخ. ثمّة طاقة مذهلة من الفرح والحياة والحب يمنحانها لمن يختلط بهما ويعرفهما. وربما هذا ما جعل أصدقاءنا المصريين المشتركين يخشون عليّ من رحيلهما عن مصر، إذ كان يبدو للجميع أن وجودهما في حياتي بمثابة التعويض عن غياب العائلة والابنة والأهل. لم يخطئ أصدقاؤنا كثيرا في هذا، لكنهم مخطئون ربما في تقدير ردة فعلي على غيابهما المكاني عن حياتي.

قبل 2011، حين كنا نرى حزن الأصدقاء العراقيين اللاجئين إلى سورية، أو القادمين إليها في زياراتٍ من بلاد اللجوء، كنا نستغرب تلك الحالة المتناقضة بين الانغماس في العيش والحزن في الوقت ذاته. ولطالما احترنا في فهم تلك التركيبة الغريبة بين الحزن وبهجة الحياة. كنا، نحن السوريين، نعيش في وطننا، بين عائلاتنا وأصدقائنا اليوميين الثابتين. لنا حياتنا المستقرّة، ولنا ذاكرة منسجمة مع سياق يومياتنا. لا ندهش من أفراحنا وأحزاننا، ولا نتساءل عن لحظات ضعفنا أو قوتنا، كانت سرديات حياتنا مشابهةً لسرديات المجتمعات المشابهة، التي تبدو مستقرّة إلى حد ما. حين بدأت الثورة وحصل فيها ما حصل، واضطرّ الملايين إلى الخروج من سورية، مرّ أغلبنا بأكثر من محطّة لجوء. ومع كل لجوءٍ، نفقد مزيدا من الأصدقاء. وفي كل محطةٍ، نبدأ ببناء ذاكرةٍ تتآلف مع المكان الجديد، نوعا من الحماية من كآباتٍ عديدةٍ تهاجمنا في كل التفاصيل. أذكر ذات مرّة أنني كنت أجلس مع مجموعة أصدقاء مصريين، فجأة شعرتُ بوحشةٍ وغربةٍ مهولة. كانوا يتحدّثون عن ذاكرةٍ غريبةٍ عني بالكامل، ذاكرة ثابتة وأصيلة ومستقرّة، بينما كانت ذاكرتي مشتّتة أحاول حشرها بتفاصيل الأشخاص والمكان الجديد، وأعاني من الفشل مرّات كثيرة. أذكر أنني انسحبتُ من الجلسة وأصبتُ بنوبة بكاءٍ كانت الأعنف والأطول طوال العشر سنوات السابقة، قرّرت يومها أن أضع قناعا يحميني من تشتّتِ الذاكرة وتلف القلب، وهو ما جعلني أكثر صلابةً، وربما أكثر قسوةً في التعامل مع مشاعري. وفي الوقت نفسه، أكثر قدرةً على التجاوب مع مغريات البهجة التي تتيحها مدينة كالقاهرة. معظم أصدقائي السوريين في القاهرة كانوا مثلي. التواتر بين الحزن والإقبال على الحياة في حياتنا يصبح عصيا على فهم آخرين لم يعانوا تجربة اللجوء الاضطراري واحتمال المغادرة في أي لحظة. لم يعانوا تجربة الوطن البديل والذاكرة البديلة، والبدء من جديد وأنت في سن يفترض أن تكون ذاكرتك فيها مستقرّة وثابتة.

علّمتنا تجربة الحرب واللجوء على الوقوف كلما سقطنا، وعلى الوداعات المتتالية، فكل وداعٍ هو فقد، وكل فقدٍ قسوة، وكل قسوةٍ هي تدريب علَى الموت، حتى تكاد قلوبنا أن تتحوّل إلى صخر، لولا أنها «تتلفت» لحظة الوداع، بدل أعيننا، فيبللها الحزن، وترقّ مرحبة بالحياة من جديد.

> كل وداعٍ فقد، وكل فقدٍ قسوة، وكل قسوةٍ هي تدريب على الموت، حتى تكاد قلوبنا أن تتحوّل إلى صخر

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** □ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**